تقنيات السرد في رحلة فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب لابن الحاج النميري

أ/ إسمـــاعيـــل زردومي
كلية الآداب والعلوم الإنسانيـــة
جامعة باتنة

الملخص:

هذه رحلة قام بها أبو عنان المريني(تـــ759هـــ) وكتبها الأديب البارع ابن الحاج النميري، صاحب سر السلطان. انطلقت أحداثها من فاس، فبجاية، فقسنطينة، ومنها أرسل الجيوش لفتح عنابة، وتونس، وتطويع الأقاليم، ثم تحرك إلى بلاد الزاب، فوصل إلى بسكرة، وجال في طولقة، ثم نقاوس، حيث صلى عيد الفطر، ثم عاد إلى قسنطينة، وبعد وشاية مغرضة، زرعت الشك فيما بينه وبين أعوانه، عجّل بالعودة، بعد أن قضى سبعة أشهر خارج عاصمته فاس، ونحن إذ ندرس تقنياتها السردية، فإننا نكشف بعض عناصر أدبيتها، وجماليات فن الكتابة السردية في هذه الفترة، زيادة عن كونها وثيقة تاريخية لفترة شهدت إحدى محاولات توحيد المغرب الإسلامي.

Résumé

Ce voyage est réalisé par le Sultan Abou Annan le marinite (759H) ،écrit par le remarquable homme de lettres Ibn El hadj El-nemeyri ،le détenteur des secret du Sultan. Ses événements ont débuté à Fès puis Bejaia et puis Constantine d'où il envoya des armées à la conquête d'Annaba ،Tunis et faire soumettre les territoires. Il s'orienta ensuite au pays des zabbes ،il atteigna Biskra explora Tolga et puis Negaous où il fit la prière de Aid-Elfiter et il retourna ensuite à Constantine. Suite à une dénonciation qui a semé le doute entre lui et ses compagnons ،il s'hâta à rejoindre sa capitale Fès après avoir passé sept mois hors de celle-ci.

En étudiant ses techniques narratives ،on dévoile quelques éléments de sa littérature et on découvre l'élégance artistique de l'écriture narrative à cette époque ،en outre ce voyage est considéré comme un document historique d'une époque qui a vécu l'une des tentative à unir le Megreb islamique.

تأطير:

الرحلة مادة حكائية قائمة على السفـــر والانتقال تجري في زمن مسجل بدقة، تحكى كأحداث وقعت في أمكنة متعددة، وفي زمن مضى.

والتراكم الإبداعي في هذا النوع من الكتابة في العالم العربي وفي مغربه بخاصة جعل الدارسين يهتمون بهذا الإنتاج دراسة وتحقيقا، ومن بينهم الأستاذ محمد بن شقرون من جامعة محمد الخامس بالرباط، الذي حقق رحلة " فيض العباب..." لابن الحاج النميري، صدرت في طبعتها الأولى عن دار الغرب الإسلامي سنة 1995م، في مجلد واحد يشتمل على قسمين:

الأول: قدم فيه المحقق تعريفا بالكاتب والكتاب وبالسلطان أبي عنان المريني، وذلك على مدى 145 صفحة.

الثاني: يتضمن متن الرحلة الممتد بعد بعض الرسوم والأشكال من صفحة 149-507، وذيّل بفهارس ومراجع ليخرج الكتاب فيما يقارب أربعين وخمسمائة صفحة (540ص)

الخـــطـــة: سأتناول في هذه الدراسة الرحلة من الجوانب التالية:

- نوع الرحلة. - بواعثها. - تدوينها.
- السارد ووظائفه: السردية، التنسيقية، الشعرية، التواصلية.
- البنية الزمنية. - البنية المكانية. - الخاتمة.

1 -نوع الرحـــلة:

التراث الرحلي العربي متنوع، وتنقسم الرحلات وفق أهداف إلى: رحلات جغرافية، وسفارية، وعلمية، وحجازية، وبالنظر إلى مكانها تنقسم إلى داخلية وخارجية...

وهذه تنتمي إلى الرحلات الداخلية الأمنية باعتبارها أنجزت فيما ما بين سنتي 758 هـــ/ 759هـــ داخل الدولة المرينية في عز قوتها حين أصبحت المغارب تحت نفوذها وفي ظل سيادتها وإن لم تخل المنطقة من مناوئين.

2 -بواعثها:

حدد الكاتب البواعث قائلا: " كان السلطان قد بعث الشيخ أبا عمران إلى ميلة وبجاية لإخماد الفتن في هذه الأوطان، فانهزم في ميلة، وانتصر في بجاية فاستأذن (الشيخ) أبا عنان في الرجوع إلى هذه الأماكن للأخذ بالثأر." [1]

وصادف أن كان السلطان مشتغلا بمحاربة الأسبان والبرتغال وغيرهم. فلما استتب الأمن على السواحل قال: " إن حركتنا السعيدة في هذا العام إلى قسنطينة التي أظهرت إباء وجاهرت بالعناد اجترامًا واجتراء..." (2)

وهكذا حدد السلطان وجهة حركته، فرسم الخطة وعرضها على المقربين وأقنعهم بالسير إلى ميلة وبجاية وقسنطينة والزاب، على أن تدرس أمور إفريقيا(تونس) بعناية خاصة.

ثم أضاف هدفا آخر وهو مسؤولية السلطان في تأمين الطريق أمام المسلمين خدمة للدين، وتمكينا من إقامة الشعائر، وبخاصة الحج إلى بيت الله الحرام...(3)

أما الأسباب المباشرة فهي الفتن التي يثيرها الأعراب في تونس وشرق الجزائر، وقد أشار إليها في أكثر من موقع (4)، ولما فتح أبو عنان قسنطينة لم يتجاوزها إلى تونس وقال للقادمين من تونس لتقديم الولاء والتهنئة " إن هذه الحركة السعيدة إنما أفردت لأخذ قسنطينة، وتمهيد أوطانها، وجعل ذلك شأوا لا تتجاوزه حلبة ميدانها." (5) واكتفى بإرسال جيوشه البرية، والبحرية لفتح تونس، ثم جاء أعيانها خاضعين، وعلى باب السلطان بقسنطينة وقفوا معجبين " مرفوعة أبصارهم إلى ما غشى تلك المواقف الشريفة من أنوار الجلال، وأشعة الكمال، وما فاض عليها من أضواء الجمال."(6)

3- **تدوين الرحلة:** تتنوع طرق تدوين الرحلات إلى درجة كبيرة، ورحلة " فيض العباب..." يختلف فاعلها عن مدونها، فمخطط الرحلة ومنفذها هو السلطان أبو عنان(729هـ-759هـ) وكاتبها ابن الحاج النميري الذي كان صاحب سر السلطان. والسؤال متى كتب رحلته؟ أكتبها أثناء الارتحال أم بعده بفاس؟

بين المحقق أن رحلة " فيض العباب..." من نسخ وترتيب ابن أخي المؤلف المسمى " إبراهيم بن أبي عمرو بن الحاج " الذي قال : " وكان الكتاب متفرقا في تقاييد مبددة، ووقائع مسددة، فطمع العبد ليكتسب الشرف الواضح السبيل، والثناء الرائق الجميل، بنسخ هذه الكتاب وتأليفه وإظهار استفتاح مولانا أمير المؤمنين أبي عنان للبلاد وتصرفه ليقتدي بذلك حفيده الأسعد الأرضي وخليفته...."(7) فالرحلة على ما هي عليه ليست من ترتيب كاتبها المصاحب للسلطان، وإنما كانت أضابير متفرقة نسقها أحد أقاربه بعد وفاته، ورغم ذلك يبقى السؤال مطروحا، هل كتب ابن الحاج هذه الأضابير وقت الرحلة أم بعدها ؟ خلافا للمألوف ليس لهذه الرحلة مقدمة، إما لكون ابن الحاج لم ينشئها أو أنشأها وضاعت

مع ما ضاع، أو نقص من الرحلة. وبذلك لا نعرف الكثير عن ظروف التأليف التي تجيب عن السؤال، إلا أن قراءة الرحلة في جانبها الوصفي تؤكد أن أجزاء واسعة من الرحلة أنشئت متزامنة مع الارتحال، ومن ذلك وصف أفعال الهدم والتخريب واستقبال الوفود والرسائل التي كان الرحال ينجزها باسم السلطان ويرسلها إلى الأقاليم وإلى الحضرة (فاس) بالخصوص، كما يتضح أن هناك أجزاء أنشأها بعد العودة، ومن ذلك ما ذكره في آخر الرحلة من أن خليفة أبي عنان قد انتقم لمن أعدمهم أبو عنان ظلما إثر وشاية قام بها عمرو بن ميمون " فقتل الواشين كما قتلوا الأشراف ظلما " [8]، فخطاب الرحلة إذن منه ما أنجز أثناء الترحل، ومنه ما أنجز بعده والكل بقلم المؤلف المصاحب للسلطان، ولم تخرج الرحلة للناس كاملة تامة إلاّ بعد وفاة أبي عنان أثناء سنة 759 هـــ، و كاتبه سنة 774 هـــ أو بعدها، ثم جاء ابن أخي المؤلف فأخرج الرحلة، ولم يبق منها إلا مخطوط واحد هو الذي كان محل التحقيق المذكور. ومن هنا كانت الثغرات التي يشير إليها الدارسون، لكنها لا تخل بجوهر الرحلة لكونها تتبوأ مكانة مرموقة بين زميلاتها وبخاصة فيما يتعلق قسنطينة والزاب.

3 -**بنية الرحلة:** تقوم أي رحلة أساسا على بنية السفر [9] والانتقال مع تسجيل الوقائع التي جرت والزمن الذي تستغرقه ورحلة " فيض العباب..." ذات بنية نمطية أي لها هيكل متعارف عليه يتمثل في الانطلاق والوصول إلى الهدف ثم العودة إلى نقطة الانطلاق، وهذه البنية النمطية تتفرع إلى بنيات فرعية كالتالي:

أ- البنية التمهيدية: وقصد فيها أبو عنان "سلا "و" الرباط " إثر وفاة أخته وحضر مراسم الدفن، وزار قبور أجداده وأجرى عدة أعمال خيرية، وتنتهي هذه الرحلة بالعودة إلى فاس، وقد استغرقت عاما كاملا.

ب- البنية الكبرى: وتتفرع إلى ثلاث بنيات أخرى هي:الذهاب،الوصول،العودة.

1 - الذهاب: ويبتدئ بالخروج من فاس [10] حتى الوصول إلى قسنطينة[11] ، وقد مرت هذه الحركة بتازا، والمدية، ثم بني يمل، فبجاية، فبلاد السدويكش، وصولا إلى قسنطينة وذلك بعد ثلاثة أشهر من خروج السلطان من فاس.[12]

2- الوصول إلى قسنطينة ومحاصرتها حتى الفتح، ثم اتخاذها عاصمة، لإعادة النظام وإرسال الجيوش لتأديب المتمردين، ومنها تتولد بنيات أصغر، وهي:

أ – إرسال الجيوش إلى بلد العناب ولم يخرج معها السلطان ففتحت عنابة.

ب– إرسال جيوش برية وبحرية إلى تونس، ولم يخرج معه السلطان، ففتحت تونس، وجاءت الوفود خاضعة.

ج– إخماد الفتن في أولاد سواق، ومن معهم من الأعراب.

د– الحركة إلى الزاب وقد أشرف عليها أبو عنان نفسه، فمرت الحملة على تجمامين، باينة، ومنها إلى لميس " تازولت" إلى باتنة، ثم المرور بالقنطرة ولوطاية، فبسكرة وطولقة، ثم الاتجاه شمالا عن طريق أمدوكال، إلى نقاوس ومنها إلى قسنطينة، وهذه رحلة صغرى داخل البنية الكبرى وهي الرحلة الأهم في " فيض العباب..." على ما نعتقد.

3 – العودة من قسنطينة إلى فاس: وقد سار الركب السلطاني حتى أشرف على سطيف، ثم اتجه جنوبا ليمر بالمسيلة ويقيم بها مدة، ومنها أرسل " ابن الحاج " كتابا إلى أهل فاس يخبرهم بالنصر والرجوع عن طريق الصحراء إلى تلمسان فوجْده، فتازا، ففاس العاصمة، وقد استقبل العائدون بفرح كبير، ولكن السلطان سرعان ما أقدم على إعدام كثير من قادته، إثر وشاية مغرضة قدمها عمرو بن ميمون، كما مر معنا.

وانتهت هذه الرحلة التي صنعت كثيرا من المجد السياسي للمرينيين بإعدام صانعي هذا المجد مع رعاة شؤون فاس أثناء غياب السلطان.

5– <u>السارد ووظائفه:</u> إننا نقرأ الرحلة في كتاب، و نتخيل الأحداث فنحاول إدراكها بناء على جملة من المعطيات منها التجارب المماثلة التي عشناها أو التي قرأنا عنها، وسنتساءل حينئذ عمن يروي هذه الأخبار، وكيف يرويها ؟ وما هي علاقته بمن يروي عنه، وبما يرويه، وبذلك نلج في آليات السرد عموما، وفي تقنية الراوي الذي تنظر إليه النظريات المعاصرة باعتباره وسيلة يستخدمها الكاتب ليكشف عالم ما يحكيه. فما هو وضع راوي رحلة فيض العباب ؟

" يستخدم الرواي السرد بتنويعاته من أجل السيطرة على القارئ عبر استراتيجيات من التشويق وبناء الحكاية الموازية لبناء الذات، وتذويت الكتابة التي هي فاعلية التشكل والحكي الداخلي من الذاكرة وقنواتها مع اللغة والخطاب." [13] والراوي في الرحلة يأتي باعتباره صوت مؤلف الرحلة الذي يحكي بتجربة واقعية أنجزها واندمجت مع سيرته

الذاتية التي يحكيها كأحداث صارت مخزونة في ذاكرته، وكل حكي عن السيرة الذاتية تتوفر فيه مسافة زمنية بين الفعل والخطاب، مهما بدا الظاهر اندماجيا، وتتمظهر العلاقة بين المروي والرحال والراوي، عن طريق الضمائر المستعملة في الخطاب.

ضمير الغائب: ابتداء من الفقرة الأولى، نشعر أن الراوي يحكي عن بطل الرحلة بضمير الغائب وكأنه شاهد ما يرويه " ودخل شهر رجب من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، ومولانا أمير المسلمين مقيم بالمدينة البيضاء..." [14] ثم أصيب السلطان بمرض، فلما بل من مرضه الذي أقعده سبعة أيام كان مؤلف هذا الكتاب أول من لبَّى منادي التهنئة وأجاب، ورفعت إلى المقام العلي المولوي الإمامي قصيدة منها:

وَقُلْ لمن وَافَى بَشِيرًا نُفُوسَنَا فَمَا هي إلا بعضُ ما أنتَ وَاهب [15]

ونلاحظ أن السارد جرد من ذاته ذاتا أخرى فروى عنها بضمير الغائب "كان مؤلف" ولكنه سرعان ما انتقل إلى ضمير المتكلم "ورفعت إلى المقام العلي " .

وحين يحكي عن أعوان السلطان يستعمل ضمير الغائب أيضا " ومازال الشيخ أبو عمران حتى خرج من غمرة الحرب مثخنا مثبتا، وأثقلته الجراح التي تركت باب البرء المترجى، مرتجا مصمتا ". [16] وكذلك حين يسرد أخبار المتمردين المناوئين :" ولما شاهد أهل قسنطينة من عظمة الملأ ما شاهدوه، واجتازت عليهم العساكر التي رددوا ذكرها وعاودوه، بهتوا، وحاروا، وأثاروا من حزنهم ما أثاروا وشملهم الندم..." [17] فالسرد بضمير الغائب "مفردا أو جمعا" يستعمل للآخر باستمرار، مما يجعله يتبوأ المقام الأول. ويسمح للراوي أن يكون حاكيا للسرد كله مشاركا في أحداثه عن طريق الفعل أو المشاهدة المباشرة أو السماع .

وهناك سرد آخر يمكن اعتباره محايدا يختفي فيه دور السارد وذلك أثناء الوصف كقوله:" وهنالك تهيأت الإحاطة برؤية الناعورة العظمى ومشاهدة أشكالها التي لها المظهر الأسمى، والجانب الأحمى، ذات المحاسن (التي روت عن صاعد ورافع، والبدائع التي قرأتها على الربيع قراءة نافع " [18]. فالراوي في مقام وصف الناعورة التي أعجب بها ولكنه غيّب ذات المعجب فقدمها بشكل محايد، وكذلك يفعل في مشاهد الوصف غالبا، " فما راق العيون كالهوادج التي علت فوق ذرى البزل الهوادر، وبدت كأنها الأكمات المكللة بأنواع الأزاهر، سامية الهامات في الجو المنخرق جامعة في الحسن بين المتفق

والمفترق، قد أحكمت بالعيدان، أطول من العبدان واعتمد تركيبها على وفق اقتراح الإبداع والإتقان، وجعلت عليها أغشية من الحلل المنسوجة بالذهب..." [19]

ورغم أنه يحكي عن ذوات معينة فإن الراوي يلتزم الاختفاء فكأنه يحكي رؤيته هو للأشياء وبدلا من أن يقول رأيت كذا أو فبدت لي كذا... جعلها كأنها مجردة من الراوي.

وتظهر الأنا حين يخبرنا الراوي/المؤلف، عن مراسلاته كقوله: " وكتبته أسرع من إلمام الطيف وأعجل من تذكر المشتاق لليالي الخيف...وجئت إلى البساط الشريف محضرا للمكتوب غير متقاعس عن المغزى المطلوب " [20]

وقد يحكي الراوي سرده بضمير جمع المتكلمين "ولما حللنا في حضيض جبل أوراس، وأصبنا من حصون الأعداء المعتدين من كل وجه أو رأس وخرجت رماحنا فولجنا..لم ننشب أن انحدرنا إلى أحواز القنطرة، فأقمنا بها الأبنية وضربنا بالآكام المشرفة على الوادي الأخبية." [21] أو كقوله: " وكان نزولنا من شرقها في أرض اهتزت وربت ورأت أهل الغرب السعداء، فأغربت، ولسرعان ما ارتفعت بها الأبنية واشتبكت وجرت على خدودها دموع الغمام فضحكت." [22]

وغالبا ما يرتبط إدماج الذات مع الآخرين حين يكون الإسناد للأفعال الدالة على الحركة أو السكون، إذ الجميع ينتقل أو ينزل مثل :"رحلنا" ، "وصلنا" ، "نزلنا"، ثم تتمايز الأفعال بين الذات وغيرها. كما أن الحكي عن الذات يتخذ أشكالا منها التعبير عن العواطف والمشاعر، ومنها إبراز الذات وتأثيرها بكتابة الرسائل والقصائد أو بعض التدخلات في الرأي كقوله: " واستأذنت مولانا أيده الله في أن أكتب عن نفسي إلى القاضي المذكور(قاضي عنابة)لأنبهه على ما يجب عليه من الطاعة واتباع السنة والجماعة وأحضه على المبادرة بعقد البيعة معطيا صفقة يمينه" [23]

ومنها تتجلى لنا صفات الراوي في علاقاته مع المرويّ "النص"، إذ قد يتخذ صفة الراوي المكتفي برواية ما يشاهد فقط " ضمير الغائب". أو يتخذ صفة المشاهد المشارك في الأحداث، "ضمير المتكلم" المفرد أو الجمع ". أو يتخذ صفة الراوي الذي يحكي ما سمع ولم يشارك فيه كالإخبار عن الأحداث التي لم يشارك فيها السلطان ، وتولى الراوي حكايتها في رحلته...

الراوي والشخصية:

إن أهم مزية للرواية بضمير المتكلم وضمير الغائب هي الفصل بين شخصيتين غالبا ما تندمجان في الرحلات، شخصية الراوي بضمير المتكلم (المفرد أو الجمع) وشخصية بطل الرحلة المخطط والمنجز لها، و يقف الراوي قريبا منه ليسرد أفعاله وأقواله ويصف أحواله في الحركة والسكون، في حالة الغضب والسرور وفي الخيم والقصور.

وهكذا نجد الراوي قد يتخذ موقعا خارجيا ويكتفي بالحكي عن الآخر بضمير الغائب أو موقعا داخليا بمثابة الشاهد ولكنه قد يسرد أيضا من موقع داخلي ذاتي مشارك في الأحداث وفي كلتا الحالين قد يحكي سردا بعديا بزمن مضى أو سردا آنيا...

وظائف السارد: تتعدد وظائف السارد فيما يسرده ولعل أولها:

أ – وظيفة السرد نفسه:

وتتمثل هذه في تحمله مسؤولية المسرود وتقديمه، وبها يحتل مكانه من الوجود الإبداعي، فإن انعدمت هذه الوظيفة انعدم السارد وما يسرده.

وفي رحلة " فيض العباب..." ينتقى السارد المادة التي يود سردها من بين أحداث كثيرة وما بين أيدينا قسمان: ما كان فيه شاهدا ومشاركا مصاحبا للسلطان، وما لم يشارك فيه ولم يشاهده، وإنما سمعه أو قرأه ويرويه بضمير الغائب، ويختار العناصر السردية ذات العلاقة بالشخصية الأساسية "السلطان" في الرحلة ليكون التجاوب معها كقوله: " فلما عرف العرب الإفريقيون المذكورون بذلك علموا أن إمامهم الأشرف أدرى بالأمور، وأعرف بمصالح الخاصة والجمهور، وإن النجح وقف على آرائه ورواياته...". [24] وبذلك يستقيم له أن يسرد لنا السلوكات التي تصدر عن السلطان في حق هؤلاء وغيرهم.

ويمكن القول أن متن السرد في رحلة " فيض العباب..." لا يتعدى ما يتعلق بالسلطان وجيشه في حله وترحاله، بالإضافة إلى أوصاف الأماكن والقصور، والمجالس التي يمدح فيها السلطان وتذكر فيها خصاله شعرا أو نثرا.

ولقد برزت في هذه الوظيفة المقدرة الفائقة في تحويل أخبار الجيوش في عنابة وتونس وتبسة وأخبار الوفود... إلى أقوال سردية بعد أن أعاد صياغتها بما يتناسب مع الرحلة، فلا يشعر القارئ بالاضطراب، ولا باختلاف مستويات السرد، من حيث لغة الإخبار والوصف أو الشروح والتعليقات فكلها منتقاة في إحكام.

ب: الوظيفة التنسيقية:

أشرنا إلى أن الرحلة لم تكتب في صورتها النهائية من قبل المؤلف، وثغراتها، لم يفصل فيها. فإذا وقفنا عندها وقفة دارس أدب تبين أن معظم هذه الثغرات قد لا تعنينا لكوننا ندرس النص كما هو لنكشف عن أسراره، وما يشيرون إليه قد يدخل في التلخيص، أو في الحذف أو الاستباقات غير الموفي بها، وعلى مستوى الوثيقة الأدبية فهي من فنيات تقديم النص التي لا يخلو منها متن ضخم سردي مثل " فيض العباب ". ولعل خلو الرحلة من علامات الزمن التاريخي في جل أجزائها والتكلف في الأسلوب مما يولد الالتباس في تتبع الأحداث، مما يجعل الإدراك عسيرا، عند من لا يعرف الميدان الذي جرت فيه الأحداث، وفي مثل هذه الحال لا تكفي الدلالات الزمنية المتضمنة في الأفعال. فالسارد يتحدث عن أحلام رياح المتربصين لجيش أبي عنان " ولم يرتابوا في مطاولة الحصار وتمادي قسنطينة على الإسرار والاستكبار حتى يجدوا سبيلا للتشغيب ويفجأوا بحازب أمرالتحزيب...فعكس الله آمالهم وصيرأنكالهم أنكى لهم. ولم يكن إلاّ أن فتحت قسنطينة عند التبسط عليها، وأخذ بخطامها عند الصمد بالمقاتلة إليها " [25] أورد السارد هذا الخبر باعتباره تمهيدا عن نوايا الأعراب الرياحيين، ولكن بعد فتح قسنطينة بأربع وسبعين صفحة، وبعد فتح عنابة بخمسين صفحة، وتونس بما يزيد عن عشرين صفحة، مما يجعل الحديث عن قسنطينة مخلا بالسياق فيقع الاضطراب لدى القارئ.

ج- الوظيفة الشعرية:

" وتتعلق بالخطاب ذاته لمصلحته الخاصة بما هو خطاب غير أن هذه الوضعية ليست الوظيفة الوحيدة لفن الكلام، إنما تكون فيه مهيمنة ومحددة لطبيعته" [26] في هذه الوظيفة يقوم الراوي بتحويل الواقع إلى أحداث متخيلة عن طريق اللغة، ويحول المناظر الطبيعية إلى مشاهد وصور بديعة باللغة تعجز عن رسمها أيدي الرسامين، ويحول المعارك وحركات الجيوش في البر والبحر والاستقبالات المتعددة إلى لوحات فنية. وخواطر الرجال وهواجسهم إلى نماذج بشرية.

فالسارد يحول البيئة وما فيها وما يجري عليها إلى "أثر فني يتضمن كل عناصر المتعة والتشويق والمعرفة "، وتتجلى قدرة السارد في تعامله مع اللغة، وسارد (فيض العباب) فنان لغوي بالدرجة الأولى، إذ يحول الخبر والحكاية، والوصف إلى صناعة لغوية يبدع

فيها أيما إبداع، وبخاصة في جانب الإيقاع بما يوفره من توازن وتواز، ومن جناس و أسجاع لا تخلو منها فقرة من فقرات الرحلة، ومن المؤكد أن خيالا نشطا يتابع ذلك في تصوير المواقف المتتابعة والمتضادة، ويزود السارد بالمتعارف والمبدع من الصور والأوضاع، ففي الخبر يقول: " وأما سلطانه بل محجوره الأمير إبراهيم بن يحيى فإنه كان أجلاه مع أولاد أبي الليل، ونال منه بالإسلام إلى الخونة أعظم النيل..." [27] وفي المعارك يقول: " فلم ينشب القواد أن احتلوا ساحتها، وحسنت مناظرهم ومناظمهم بمساحتها، وسمعوا مقالها، وحمدوا مقامها..." [28] وهكذا نجد فن الكلام يبلغ ذروته في " فيض العباب" بما يمتلكه السارد/المؤلف من مقدرة في فن الكتابة، ومن ثقافة أدبية فنية إلى جانب المؤهلات الذاتية التي تبوئه المقام الأول في النثر الفني كما يمكن رصد الأشعار المروية في الرحلة للدلالة على المستوى الإبداعي شعرا و نثرا.

ومن هذه الأشعار قصيدة طويلة في أكثر من ستين بيتا منها:

فسر في ضمان الله ملكك فوق ما تسنى قديما للرشيد وللمهدي
بقيت سعيدا في الملوك مخلدا ولا زلت تهدينا إلى جنة الخلد
ودونك مدحا شبه المسك عرفه فطيبه ينسي أبا الطيب الكندي[29]

د- الوظيفة التواصلية:

وتتجلى في كامل الرحلة، وفي هذا الإطار ينشر السارد الرسائل الإعلامية الموجهة إلى الشرفاء والعلماء والوجوه والأعيان...، وغايتها إطلاع الرأي العام على المراحل التي قطعت والأهداف التي أنجزت كما رسمت في مشروع السلطان وبخاصة أخبار الانتصارات والفتوح، لتبقى الصلة وثيقة فتطمئن النفوس، وتقوى أواصر المحبة والطاعة، ويسود في البلاد الأمن والسلام ويحدث التأثير الإعلامي لخدمة إستراتيجيات أخرى، ومن هذه الرسائل الفقرة الموالية: "...وما اجتزنا على أبواب قسنطينة حتى ألقوا إلينا أيدي الإذعان، وسقط في أيديهم سقوطا علت به والحمد لله كلمة الإسلام. وداخلهم الرعب الذي أضحت به قلوبهم كأعلامنا خافقة، ورأوا ما لا طاقة لهم به، فأظهروا توبة نصوحا وإنابة صادقة." [30]

وهكذا تتوالى الرسائل المبشرة مع كل جديد كقوله: " ولم يكن بأسرع من وصولنا إلى بلاد الزاب، وإنجاف الخيل لها كما ترضاه الركاب، فتتبعنا بالمنازل شتى أقطارها، وجسنا

بجيوشنا المظفرة خلال ديارها وهدمنا ما كان للأشقياء من حصون... وقطعنا نخيلهم الذي كان بحدائقه الملتفة صنوانا وغير صنوان. "[31]

على أن هناك نوعا آخر من الرسائل بمثابة التعليمات السلطانية يتوجه بها إلى بعض الأعيان الذين يثبتون في وظائفهم أو إلى الذين يعينون من جديد أو غير ذلك من المراسم السلطانية التي ينشئها الكاتب/المؤلف، بالإضافة إلى الرسائل الشفوية التي يصدرها في الحين لما يتناسب والمقام. ويمكن إدراج قصائد مدح السلطان في هذه الوظيفة باعتبارها تجسد العلاقة التواصلية بين الحاكم والمحكوم.ومن ذلك ما قاله في بسكرة إكراما لواليها ابن مزني بأمر من السلطان:

كأن ابن مزن يخلف المزن عندما يجود إمام لم يدع هديه لبســـــا
وما تشرف الأوطان إلا بمن حوت وما قدر جسم المرء أن يفصل النفسا
وأن بلاد الزاب بعد حلولـــــــه بها لحقيق أن تحب ولا تنســـــا[32]

6- <u>البنية الزمنية</u>: يختلف الإحساس بالزمن وأثره على الوعي الإنساني كما يختلف إدراكه بين الناس ويمكن أن ينسحب ذلك على الأعمال الأدبية لكونها قطعة أبدعها الأدباء للتعبير عن ذلك الوعي والإدراك وسنقف قليلا مع رحلة "فيض العباب" للكشف عن التشكيل الزمني.

<u>أ- الزمن الطبيعي</u>: إن الزمن الطبيعي يساعد على تشكيل الإطار الذي تجري فيه الأحداث، وعند غيابه أو غموضه تضطرب عمليات الإدراك ذلك أن الكاتب حين " يتبنى النمط السلوكي النموذجي يسهل على المستمع عملية الفهم." [33]

ورحلة " فيض العباب " سبقت باستعدادات مادية ونفسية. إذ تبدأ من فاس يوم: 23جمادى الأولى 758هـ ولا يلتزم السارد بذكر الأيام والمراحل، بل نجده يقفز إلى التاسع عشر من جمادى الآخرة، وفجأة نجده في المدية وبعدها يؤرخ بالأحداث وليس بالزمان، ولم يذكر التاريخ وإنما يكتفي بحدث الوصول الذي يصبح معلما إلى حين بروز حدث آخر لذا يقول: " وفي عشية يوم الوصول " " وفي ثاني يوم القدوم" " في يوم آخر" وحتى فتح قسنطينة لم يذكر تاريخه بالضبط، وكذلك عنابة وتونس وغيرهما، مما يدفع بالدارس إلى التساؤل عن هذا الإغفال، أهو مقصود ؟ أو سقط مع مرور الزمن؟

ولعله لا يريد أن يجعل رحلته مقيدة بالمراحل والأيام كما في المذكرات، وقد سبقت له تجربة مع المذكرات وإنما أراد أن يجعلها كتابة حرة، ولا يعود إلى التأريخ إلا في رمضان حين أراد أن يبرز قوة الإيمان لدى السلطان وجنده الذين يجاهدون المشاغبين،

وهم صائمون في الحر الشديد وعلى أطراف الصحراء – الزاب– أو حينما أراد أن يخبرنا بعيد الفطر الذي أدى السلطان صلاته في نقاوس[34] ، وبعد الرحيل من نقاوس يصل إلى قسنطينة يوم الثاني عشر من شوال[35] ، ويختفي بعد ذلك ذكر الزمن، فلا نجده رغم تزاحم الأحداث وبخاصة أحداث العودة إلى فاس وقطع المسافاتّ، والنزول بتلمسان، والقيام ببعض الأعمال، حتى يقول وهو في فاس " ولم يكن إلا أن قام عيد النحر وأمر على الوزير بالقتل صبرا فمن للمعالي بعده بالصبر؟ "[36]

بهذه الإشارة ندرك أن ركب السلطان كان قد وصل قبل عيد النحر بقليل، أي أن الرحلة استغرقت ما يزيد عن سبعة أشهر. ولم يذكر تاريخ العودة وإنما يؤكده غيره بغرة ذي الحجة عام 758هـ. ونعلم أن السلطان نفسه قضى في سنة 759هـ.

وإذا كانت هذه معطيات الزمن الطبيعي في الرحلة، فكيف تشكل الزمن في السرد؟

ب– التشكيل الزمني في الرحلة: إنه كأي سرد آخر تمظهرت فيه كيفيات تجلي الزمن على مستوى الوقائع وعلى مستوى القول، لذا سنقف عند العلاقات الثلاثٍ[37] وسنكتفي بدراسة الترتيب، والديمومة بإيجاز، ونغض الطرف عن التواتر.

1– الترتيب: رحلة "فيض العباب" مرتبطة بالإنجاز الواقعي للفعل، فالسارد فيها يقوم بوصف ما حدث وسرده، والزمن فيها تتابعي خاضع للترتيب الطبيعي(أ، ب، جـ...).

وهكذا تشكلت الرحلة، وداخل هذا الترتيب تسرد الأحداث في تزامن أو استرجاع أو استباق.

أ–التزامن:

فمن التزامن قوله وهو يصف السيل: " ولسرعان ما ولجت علينا الأخبية، وعمرت الأفنية، وغشيت الأبنية، ثم سكنت غواربها فصارت أغرابا، ودفع الله بنضوب ذلك الماء العذب عذابا، وأعقبنا سرورٌ وضحت أساريره وابتهاج طلعت طلوع الصبح تباشيره.." [38]

وتأتي النصوص الواصفة للأحداث التي شاهدها السارد مع السلطان تزامنية غالبا، وبخاصة في الاستقبالات، وحركات الركب، وهدم القصور...رغم استعمال الفعل الماضي.

ب- الاسترجاع: تبدأ الرحلة بالإحالة على أحداث تقع خارج زمن الرحلة وتستمر حتى وقوعها، وذلك حين يشير السارد إلى أنه من أسباب الرحلة ما وقع بين المتمردين ببـــجاية وضواحيها، وبين الشيخ أبي عمران قائد الجيوش المريـــنـــيـــة قبل الرحلة. (39) وتأتي الاسترجاعات في الرحلة لتحقق الأهداف المعروفة لها، فمنها ما يتعلق بالشخصيات كقوله: "وكان يعقوب بن علي المذكور ممن كانت له السوابق الحسنى في خدمة هذه الإيالة، والرحمى... التي لم تزل أخبارها تنمي، وأناف على نظرائه في المناصحة لهذه الدولة العظمى..."(40)

فالاسترجاع متعلق بشخصية حقيقية لها سوابق حسنة في خدمة الدولة المرينية، ويستمر السارد في ذكر بعض أياديه حتى يصل إلى حاضر الرحلة حيث "ظهرت منه في هذه الوفادة أحوال دلت على نزارة عقله... وتراقى الجهل به إلى أقصى سبله واشتماله بالخرق الذي ما كان في شيء إلا وشانه..." (41) فسلوكاته الآنية نقيض ما كان عليه في الماضي ولا تدل إلا على الحمق والجهل، فلم يزل يبحث عن حتفه بظلفه ويجدع بكفه مازن أنفه حتى حقت عليه كلمة الطرد، فالسرد إلى هنا يشمل الزمن الماضي والحاضر لشخصية (يعقوب بن علي).

ثم إن السارد بعد أن يشخص الصورة ينقلنا إلى المستقبل عن طريق التشويق إلى ما سيحدث " وسيأتي بيان السبب في ذلك مستوفى الإيراد...إن شاء الله "(42) وهكذا مع السرود الاسترجاعية المتعلقة بالشخصيات.

والسارد في رحلة " فيض العباب " يكتفي بما يحدث زمن الرحلة فقلما يستنطق التاريخ عن أحوال الماضي، ولكنه يفعل، ومن ذلك الإشارة إلى حكام نقاوس قبل وصول السلطان إليها: "وكانت نقاوس هذه على اتساع سوادها... قد أعطاها أصحابها الموحدون منذ أزمان لعربي جلف وهو محمد بن يحي، شيخ أولاد عساكر وشيطانها الذي آوته الخلافة فألفته الغادر الماكر... ولبس هذا العربي العساكري في الدولة العلوية، حتى بقيت نقاوس بيده غنيمة باردة، ونعمة هاملة، لا هامدة، وأقطاعا لظهور الرعايا به قطع، وإسهاما لسهامه في صدورهم صدع." (43) فالاسترجاع يعود إلى زمن الموحدين ومن كان يحكم نقاوس إلى زمن وصول أبي عنان. وكالاسترجاعات الخاصة بالشخوص يسرد ماضي المكان ومآله في الحال، وقد ينتقل إلى المستقبل وقد لا يفعل، فالسارد حين يكسر

التتابع المألوف بالعودة إلى الوراء ينتظم مرة أخرى في ترتيب جديد من الماضي إلى الحاضر، وقد ينتقل إلى المستقبل حين يقتضي السياق ذلك.

وهذه الاسترجاعات على تعددها منها ما نتعرف إليه من خلال السياق ومنها ما يشير إليه السارد مباشرة كقوله:" ذكر الرحيل إلى طولقة المتقدمة الذكرّ أو كقوله "رجع الحديث" أو غيرها من صيغ الأداء الدالة على الاسترجاع، والرابطة لنظام السرد وتأليفه.

ج- الاستباق:

وهو تقنية زمنية استشرافية خاصيتها الفنية هي التشويق والتحريض على القراءة و" فيض العباب " تبرز فيها الاستباقات بشكل لافت وهي بمثابة وعود يعد به السارد القارئ، وقد يفي بها قريبا أو بعيدا وقد لا يفي إطلاقا. وهكذا تتعدد الاستباقات وتتنوع أغراضها. من ذلك أن السلطان يستخبر شيخا مشهورا عن قسنطينة والمتمردين:" وأخبره أنه يفتحها ويأخذها أخذا لحسن أمورها ويصلحها، وأخبره من أحوال العرب بما نرجو من الله تعجيل وقوعه وظهوره..."(44)

وهذه التوقعات مما يمكن اعتباره مبشرات مستقبلية يقوم بها شخص آخر غير السارد... وهناك استباقات يعد بها السارد كقوله وهو يسرد أحوال المتسلطين على السدويكشيين "...فأخذهم الله بما لبسته أيديهم أسرع من لوث الإزار وحل القناع وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله مستوفى مقاله في مقامه، مفتوحة أبوابه لمن تشوف إلى استعماله." (45) وقد جاء الوعد محققا بعد مدى يقدر بمائة صفحة وهذه الاستباقات المتراخية تكاد تنسى مما يفقدها حيويتها، وهناك استباقات تتحقق سريعا، وتمتن الثقة بين السارد والقارئ، ومن ذلك: " وعزم مولانا أيده الله على أن يقدم على قسنطينة ليتركها عبرة للمعتبرين، وينزل في غد ساحتها ليسوء صباح المنذرين. لكن الله سبحانه كيّف التي كانت أقرب لليسرى، وأجلب المسرة الكبرى... وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله محفوظ النظام..." (46) ، نلاحظ في هذا النص استباقين أحدهما تلغيه الأداة " لكن" والثاني "وسيأتي ذكر ذلك..." وهو ما يتحقق بعد صفحة ونصف فقط.

على أن هناك بعض الاستباقات الزائفة كقوله متحدثا عن إحدى الشخصيات قال:" حتى كان من أمره ما سنذكر إن شاء الله من كائنات العام الآتي قريبا، ووقائعه التي لم تبق بتلك القصور بعد القصور من العرب عريبا "(47)، ثم إن السارد لم يحدثنا عن العام القادم

ولا عن حوادثه. هذه بعض النماذج للترتيب الزمني وقد وظف فيها السارد الإمكانات المتاحة التي تراعي في أكمل النصوص السردية الحديثة.

الديمومة : "la durèe"

وهي ذلك " التفاوت النسبي... بين زمن القصة وزمن السرد..." [48] ويمكن التعبير عنها بسرعة السرد أو بطئه، ولكون هذه الحركة صعبة القياس، فهي غالبا ما تخضع لتقييم الذات القارئة، لهذا حاول الدارسون إيجاد ضوابط لها من خلال مصطلحات:" الوقفة المشهد، التلخيص، الحذف"، ومن خلالها نقف على إيقاع نص رحلة " فيض العباب".

أ–الوقفة: وفيها يترك السارد السرد ويلجأ إلى الوصف لأغراض خاصة، ورحلة "فيض العباب" فيها كثير من هذه الاستراحات الوصفية، مما يتعلق باستعراض الجيش أو وصف المواقع أو الظواهر الطبيعية وفي هذه الوقفات نشعر ببطء حركة السرد.

ومن ذلك وصفه للنواعير الثلاث"[49]. وذكر السانية وأوصافها المتباينة " وكم نادى بمائها الروض، فلم يكن المنادى مضافا بل طاب فأخرج نباتا طيبا كرم أنواعا وأصنافا، وسرى إلى الأشجار فألقته في عيونها، وظهرت ينابيع حكمته من قلوبها على ألسنة غصونها، فدعت إلى الاعتبار، فزينت كمائم قلوبنا بأزهار الأسرار"[50] فالوصف كثيرا ما يؤدي دور السرد، ولكنه من حيث الإيقاع يبقى بطيئا كقوله واصفا استقبال أهالي بسكرة لموكب السلطان " وركب نساء البلد السطوح، وتبوأنها للإشراف على المواكب لصروح، وملأن الطرق عاقدات صفوفهن بممر الخليفة، ناظرات لأنوار غرته الشريفة..." [51]

فالوقفات الواصفة لا تأتي للتزين، ولكنها تقوم بوظائف متعددة أعلاها أن يتحول الوصف سردا، والقارئ قد يستثـــقل بعض الأوصاف شوقا لاستكمال الخبر بسرعة إلا أن السارد يأبى إلا أن يقدم الأحداث بلغة منتقاة وإيقاع متماوج بالجملة المتوازنة المقفاة.

ب–المشهد:

يطلق المشهد في إطار الديمومة على الحوار أو ما يمكن أن يقوم مقامه من كلام طويل متعاقب بين المتكلمين سواء كان شفويا أو مكتوبا والحوار المباشر يكاد ينعدم في رحلة " فيض العباب..." وما كان منه فهو مسرّد أي أنه يتحول إلى حدث مخبر عنه كإخباره عن قدوم قاضي عنابة للمثول أمام السلطان "أبي عنان" بقسنطينة إلا أن وفد عنابة طالبوا بمقابلة القاضي أمام حضرة السلطان بغرض تحميله وزر ما وقع في بلدهم "

فلم يكن إلا أن طلب أهل بلده حضوره بين يدي الخليفة، والإذن لهم في التعريف بأحواله السفيهة السخيفة، فأسعفوا بذلك استكشافا لأمورهم. ونظرا في المصالح الجالبة لسرورهم، وأحضر القاضي موقف الخصام، مطالبا بدلائل الاعتصام فوقعت الشهادات بنفاق نفاقه، واعتماله في عزته وشقاقه..." [52] فالموقف يقتضي الحوار المتبادل بين قاضي عنابة وسكانها، والقاضي الأكبر الذي هو السلطان لكن السارد عدل عن ذلك إلى جعل الخطاب غير مباشر، ويحكي الواقعة بدل نقلها كما هي. والخطاب بهذه الكيفية مستفيض في الرحلة، ومما يؤدي دور المشهد الحواري تناوب الشعراء في مدح السلطان مثل مناسبة انطلاقه في الرحلة إلى قسنطينة والزاب، أو أثناء الطريق أو ما قيل في تهنئته بمناسبة فتح قسنطينة، وإن كانت من أخبار السارد وليست نقلا مباشرا، وتلعب الرسائل دورين من حيث الحركة "الإيقاعية" للرحلة، فلمن قرأ الرحلة وعايش أحداثها تعتبر كلاما مبطئا للسرد، يمكن إدراجها ضمن المشهد ولمن ليس له علم بما سبق تعتبر تلخيصا للأحداث.

ج- الخلاصة أو المجمل: [53]

نعتمد على الخلاصة في سرد الأحداث التي يفترض أنها وقعت في سنوات أو أشهر أو ساعات، وتختزل على مستوى الخطاب في صفحات أو أسطر أو كلمات...، وتشكل هذه التقنية معظم المقاطع الاسترجاعية، كما يلجأ إليها السارد حين يود تسريع سرده. أو يحمل سيرة رجل كقوله متحدثا عن إمام قسنطينة الذي أثار الفتن في وجه المرينيين: " ولم يزل منذ كان في المحراب مصليا، في حلبة الفتن مجليا ومصليا، وقد قرأ علم الخلاف، مصرًا على النفاق والخلاف، من رجل سلك للغواية سبيلا، وبدّل كلمة المملكة المرينية تبديلا، وكان من الذين يرون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلا " [54]

ولما تم فتح قسنطينة ودانت عنابة وتونس جاءت الوفود معلنة الطاعة والخضوع، قال: " وتتابع قدوم الوفود بها من جميع الكور والبلدان، والأقاليم الإفريقية الأوطان وواصلوا الوفادة على الباب الكريم أفواجا وأرسالا، وحطوا بالمواقف الشريفة رحالا..." [55]

لقد قطع الركب الرحلة بين نقاوس وقسنطينة في ثلاثة أيام خص لها السارد أقل من صفحة. وحين العودة إلى الغرب خصّ السارد للمسافة بين قسنطينة والمسيلة حوالي نصف الصفحة، ففي مثل هذه الأخبار يصل التلخيص إلى سرعة عالية ولكن السرعة

القصوى قد تكون في تلك الأخبار التي ترد على السلطان ويسردها السارد، بعد أن تكون الجيوش قد قضت في إنجازها أياما كثيرة وربما شهورا.

د- الحذف: هي الفترات التي يسكت عنها الخطاب أو يشير إليها أو تفهم ضمنيا، والحذف لا يتناول الإسقاطات الجانبية التي تدرس في النقصان [56] كتلك الثغرات التي يشير إليها الدارسون من كونها ساقطة بفعل تقادم الزمن على المخطوط، أو بفعل الناسخين أو غير ذلك، ولكن تشير بسرعة إلى الحذوف المتعلقة بتسريع السرد سواء بفعل إرادي أو لا إرادي ولن نخوض في تفاصيل الحذوف وتقسيماتها.

فالسارد لم يسرد لنا المراحل التي قطعها الركب من عيون القصب إلى المدية، ولا شك أنها مراحل كثيرة جدا سكت عنها السارد سكوتا تاما، فهي مراحل تفهم ضمنيا من باب الحذف غير المعلن، وحين كتب السارد/ المؤلف رسالة إلى فاس يخبرهم فيها بالعودة كان بظاهر المسيلة وأورد الرسالة التي هي بمثابة خلاصة لما جري في الرحلة واستغرق ذلك أربع صفحات ختمها بقوله: " وعما قريب إن شاء الله يكون قدومنا على بلادنا الغربية في طالع السعود... ثم قال: " وفي يوم قدوم مولانا رضي الله عنه على تلمسان..." [57] ، فلم يذكر الأحداث التي جرت ما بين المسيلة وتلمسان، ولم يشر إليها إلا بكلمة "عما قريب" فهو حذف معلن، نستطيع أن نتوقع بعض ما حدث فيه تخمينا، والحذوف في الرحلة كثيرة جدا يصعب تقصيها، وتكفي هذه الإشارات لنقول إن متن الرحلة من حيث السرعة متفاوت فحين يكون السارد في وضع الواصف أو السرد التفصيلي، أو الاستماع للقصائد، أو قراءة الرسائل، نشعر أن السرد بطيء الإيقاع ولكنه في التلخيصات والحذوف المختلفة نشعر أن السرد سريع الإيقاع، وهذا التنوع يعين القارئ ويشوقه، ويربط أجزاء السرد في وحدة متماسكة ذات بداية ونهاية وما بينهما.

7-البنية المكانية

تشتمل الرحلة على عدة أماكن تجري الأحداث الفعلية فيها مما يسمح للدراس أن يتحدث عن فضائها باعتباره مسرح الأحداث الممتد من الرباط إلى تونس عبر الخط الأفقي بالإضافة إلى انعطافات أخرى أقصاها واحة بسكرة وأطرافها الممتدة إلى طولقة، فالفضاء واسع يشتمل على الجبال والوهاد، وعلى الوديان والشعاب، وعلى السهول الخضراء، والفيافي القفار والبساتين الغناء، ويشتمل على المدن والقرى وعلى البر والبحر

وتجري فيه الفرسان بخيولها والرماة بأسلحتها، والبحارة بأجفانها وأساطيلها ويتعذر الحديث عن هذا كله و " فيض العباب..." ليست من الرحلات المهتمة بالمسالك والمراحل، لذا تختفي مراحل الحركة من حيث النزول والارتحال، ولا يتوقف السارد إلا في الأماكن التي حددت من قبل السلطان مثل بجاية، قسنطينة، الرحلة إلى الزاب، ثم العودة إلى قسنطينة، ومن هنا يحمل عنوانها بعدا دلاليا يعكس الأهداف.

وفي دراستنا لهذا العنصر سنقف عند بعض هذه الأماكن، وبخاصة في الرحلة ما بين قسنطينة والزاب، إذ المكان في هذا القسم يوسم بالجمال، وهو مأوى للأعداء لذا نجد السارد يتأمل جماله وحسن صنعته وإتقانه، ثم يصف تهديمه بعد فرار ساكنيه.

فقصر تيجمامين الذي بناه عثمان بن أحمد الرياحي يراه " قصرا بديعا قد قامت بذلك الموضع الخلاء عجائب آثاره... وكان قصرا منفسح المساحة... قد ارتفعت حيطانه من جهاته الأربع بالحجر المنجور المعروف بالعيسوي... في قديم الدهور...

وكان بكل ركن من أركان هذا القصر برج لا يصلح أن يكون به أوج إلا للتستر، وارتفع على بابه برج خامس ناهر اللمح، أبيض منير كعمود الصبح... وكانت بداخل القصر ديار محكمة البناء متناسقة السكك، متسعة الأذراء، أجلها دار عثمان... وحفت بهذا القصر جنات تعرف في وجوهها نضرة النعيم وحدائق تسهل ألفات غصونها ألسنة النسيم..." (58)

هذا الوجه الجميل الذي أفاض فيه السارد وابتدأ كما نرى بتقـنية العموم ثم الخصوص، إذ وصف القصر بعين الطائر فبين منظره الخارجي، ثم ولج القصر فذكر دياره ورخامه، ثم ما حوله من بساتين وأزهار وأطياب، وماء سياب، وفي المقابل وبعد الوصف الحيوي الجميل ينتقل إلى وصف فعل الهدم قائلا: " فأمر مولانا أيده الله بهدمه، وصدر عهده الكريم بإذهاب رسمه، وركب حتى قسمت على القبائل، وأسلمت مصانعه البديعة إلى الغوائل، فتحكمت في تحليل تركيبه المعاول، ولم يعجب من مبنيه إن غيّرته العوامل، واستمر العمل على ذلك... حتى لصقت معاليه بالأرض...ثم عمد الجموع المعروفون بأبادين إلى الجنات فعموا شجرها قطعا، وأعدموها أصلا وفرعا...وخرت حيطانها إلى الأذقان، وانسلّت أرضها من ربقة الغصب والعدوان." (59)

فكأن الوصف هنا يؤدي دور المشاهد المسرحية، يقدم فيها المكان جميلا عامرا مغريا، ثم يردفه بحركة التهديم و التخريب، ليصل في النهاية إلى المنظر الثالث بعد التهديم "... محيت آثار القصر، وأثبتت آيات النصر، وسعدت القلوب والنفوس، ورفعت بانحطاط تلك المصانع الرؤوس." (60) فالسارد يعتمد أساسا على الرؤية المباشرة التي اتخذت الاستقصاء ووصف الجزيئات أداة للتجسيد، وأثناء وصفه يكون قد بنى القصر بناء لغويا جميلا ثم يزيله تماما وبهذا يؤدي الوظيفة التوثيقية للمكان الذي انعدمت وثائقه، ويمكن أن يساعد إلى درجة ما على وظيفة ترميم المكان بمعنى تصور المكان، من حيث الموقع الأثري، إضافة إلى الوظيفية الجمالية. وهكذا تتعدد الوظائف التي يؤديها السارد في مثل هذا المكان وبهذه الكيفية يصف قصر باينة، وقصر باتنة، وقصر القنطرة، وقصور لوطاية..."(61)

أما قصر لميس والأرجح أنها "لامبيز" الحالية، فقد وقف عندها السارد وقفة مغايرة، إذ وصف الآثار القديمة " التي كانت أعجوبة الليالي والأيام، وشاهد بقايا معالمها التي خربتها سيوف الإسلام، وطاف بقبتها العظمى المبنية بالحجارة المنحوتة... المزدانة بنقوش التصاوير المضمنة جوانبها ببدائع الأساطير المرتفعة حيطانها في الجو المنخرق المحفوفة بالأساطين التي هي من أعظم ما يرى في المغرب والمشرق، الفارجة عن بلاطات متصلة بساحتها الكبرى... (62)

فالسارد يقف مندهشا أمام آثار "لميس" وصناعتها المتقنة، كما يتأملها السلطان ويطوف بها، ويقف عند صورها التي تحكي أساطير اللاتين، ويبدو أنه مع السلطان ترجمانا إذ قال: " فاعتبر مولانا أيده الله في تلك الآثار البادية، في تلك الأحجار إلى اللسان العربي الذي هو لسان أهل الجنة دار القرار، فوجد فيها ذرءا من التعريفات والأخبار، وبعض الحكم التي يستحسنها أولو البصائر والإبصار"(63)

أما القصور التي بناها العرب في" لميس" فقد خربها كغيرها " وأمست تعول من آلام المعاول ملحفة أعاليها بالأسافل، لا يلم بها بعد ذلك إلا الضبع والسرحان..."(64) وكذلك فعل بقصر باتنة "... وأضحى برجه وليس بوتد لكن مقرّا للأوتاد..."(65)

على أن وصف القصور بوضعه الكائن، وذكر عملية التهديم لا تكون بالرؤية المباشرة باستمرار، فقد يكتفي عن ذلك بالإخبار كما فعل وهو بنقاوس، إذ أخبر بما فعلته العساكر

بقلاع ريغة وغيرها في تلك الجبال " فتوجه الحاجب ثقة الخليفة الشيخ أبو عثمان... بجموع من الخيل والرجال، والآلات الكفيلة بتلك الأعمال. ففي آثار قلعتين في يوم واحد..."[66] ومثلها ما فعلته الجيوش بسفيان، فالمكان الذي يحتل مساحة واسعة في هذا الجزء من الرحلة قد يوصف بعين السارد مباشرة، وقد يخبر عنه، مكتفيا بالنتائج.

وهناك أمكنة لا تأوي أعداء معارضين، بل يسكن فيها أعوان مساعدون، وللسلطان مطيعون، وبمثلها يحدث الإعجاب المتبادل كما في بسكرة " ودخل مولانا الخليفة إلى البلد والأصوات مرتفعة بالسلام، والعقول ذاهلة من هول ذلك المقام، والدعاء مردد جهارا والثناء متبلج زهرا، ومتأرج أزهارا، والشكر متأنق قدرا، ومتألق أنوارا..."[67]

فالاستقبال البهيج للسلطان من قبل أهالي بسكرة يترك انطباعات حسنة على مستوى السرد ووصف المكان، وما ذلك إلا لكون ابن مزني مطيعا للدولة المرينية.

ومما أفض فيه صاحب رحلة " فيض العباب " الحديث عن الطبيعة وجمالها ومن ذلك " البستان الأعظم الذي احتفل ابن مزني في غرسه، ووصل يومه في تفقده بأمسه وجعله مجلبة أنسه، ومنية نفسه... فدخل – أيده الله – ذلك الملك الذي لا يصلح إلا إلى الأملاك ولا تشبه مطالع زهر زهره إلا بالأفلاك وجال منه–أيده الله– في أكناف ممتدة الظلال، طيبة الفروع والآصال، وحدائق مائلة الأغصان، قد اختلطت بها ثمرات النخل والتين والرمان وغير ذلك من الثمرات المتفننة في الأفنان، فصارت كأنها أطباق منظمة بالفواكه المختلفة الألوان، مقدمة على بساط النور البهيج لكل مسرور الجنان بالجنان." [68] فالمكان هنا ليس فيه إلاّ المنظر الجميل والمطعم الشهي، وقد تنوعت أشجار الفواكه وتداخلت بشكل أظهر فيه الإنسان مقدرته في التنظيم وأفاض فيه الرحمن بخيره العميم.

ووصف بساتين الزاب من بسكرة إلى طولقة/ قل نظيره وجدير بأن يدرس وحده كقوله: " بواسق فاض على أعطافها التزيين، وأشبهت الألفات لكن لظلها المد ولثراها اللين، وقصّرت على طموحها أنواع الأشجار التي أعربت عن فضلها، وحملت أغصانها المضاجعة لويلها فكان على يد القابلة لكن للنمو وضع حملها " [69] فاللغة الواصفة نفسها صارت بستانا منسقا بشكل بديع "فالجمال يولد الجمال" ومن مشاهد الطبيعة وصف ريح ومطر بعد برَد في وهاد القنطرة: " فلما بث الليل على كافور الأرض مسكه، وألقى على المنزل العميم البركات بركه... لم يرعنا إلا عصوف الريح الصرصر شيعة الانبراء،

مالئة ما بين الأرض والسماء، فاضّة أسداد الفضاء... مذكرة الريح العقيم وعاد عهدها القديم." (70) واشتد الريح وقوضت الخيم ولم يبق إلا أخبية السلطان " وأما ما جاورها من أخبية الخواص وخيامهم المحكمة الاصطفاف والتراص، فإنها انهدمت لأول عصوف الريح، وبرح بها الانكشاف أوحى التبريح، ولم يزل الأمر مهولا ونطاق الصبر محلولا، حتى تداركنا الله بلطفه." (71)

ولقد أجاد السارد في وصف الشتاء الذي كان من أسباب توقف متابعة المتمردين "...لا سيما وقد اشتد البرد فما قيل حتى... وأقبل الشتاء فقلوب السحب جميعا لا شتى، والثلوج تسقي الأرض كافورها لتنقطع ولادتها، والبروق تلفح الآفاق بنيرانها، فلا تنفع عيادتها والرياح قد أبدت عصوفا دائما وأتت بجنودها فكأنما ظنت كل قائم قائما." (72)

ولم يكتف السارد بالحديث عن الأمطار والرياح والثلوج، بل أشار إلى الحر الشديد حين السير إلى الزاب فقال: " وكان يوما التظت جمرات هجيره، وسأله القيظ عن قبيله وقطميره، وحمى جوه حتى قيد النسيم آخذا وكان يسقط الطائر فوق الرؤوس حنيذا... وكادت الأصوات تنقطع، والقلوب إلى الحناجر ترتفع، وطال قصير الوقت، وقالت النفس لضلوعها " أحرورية أنت؟ " وتوقع للمصابرين الموت، وخيف من شدة العطش الموت. فاضطر الناس إلى الإفطار وتبريد الضلوع الحرار، وإحياء النفوس التي توارت بالأوار، إلاّ مولانا أيده الله..." (73)

الخاتمة:

هكذا تتجلى لنا رحلة " فيض العباب..." التي سرد فيها السارد أخبار السلطان " أبي عنان" في حركته التي قضى فيها على الأعراب المتمردين والمفسدين، في شرق الجزائر وتونس وفي بلاد الزاب والجريد، وأبدى فيها الرحال مقدرة عالية على صنع المشاهد البشرية والطبيعية بواسطة اللغة التي يأتيه قريبها وبعيدها، أليفها ووحشيها، فإذا هي طيعة تتشكل كما يحب لها.

تلك قراءة في متن رحلة "فيض العباب" نأمل أن تكون قد قربت للمتلقي بعض خصائصها إن لم تكن قد أغرته بقراءتها أو امتلاكها، وهي بعد ذلك وثيقة تؤرخ للمنطقة في فترة قلت وثائقها، وبخاصة ما يتعلق بإقليم قسنطينة وأرجائه، وجهود المرينيين في توحيد المغرب بأقطاره. كما نستخلص أن الرحلة نهص أدبي ممتاز تجلت فيه معظم خصائص الشعرية المعاصرة بأبعادها الزمانية والمكانية ومواصفات السارد الإبداعي كما تتطلبه وجهات النظر في النصوص السردية وما ذلك إلا لحسن التأليف وامتلاك ناصية القول لولا

بعض التصنع الذي كان يعتبر حلة تزيينية لا غنى عنها في زمن القائل وإن كنا نستثقله نحن الآن.

الهـــوامش

(1)- ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد د.محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، سنة 1990، ص:70.

(2)- نفسه، ص:160.

(3)- الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، المغرب، ط؟، سنة؟، ج2، ص:396. (4)- الرحلة، ص:159.

(5)- نفسه، ص: 383. (6)- نفسه، ص:367.

(7)- نفسه، ص:150. (8)- نفسه، ص:506.

(9)- عبد الرجيم مدن، أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، المغرب، ط1، سنة1996/1417، ص:21.

(10)- الرحلة، ص:223. (11)- نفسه، ص:294.

(12)- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ص:405.

(13)- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، الدار البيضاء، ط2، سنة2003م، ص:192.

(14)- الرحلة، ص:151. (15)- نفسه، ص:152.

(16)- نفسه، ص:156. (17)، (18)- نفسه، ص:308

(19)- نفسه، ص:233. (20)- نفسه، ص:181.

(21)- نفسه، ص:370. (22)- نفسه، ص:416.

(23)- نفسه، ص:420. (24)- نفسه، ص:347.

(25)- نفسه، ص:384.

(26)- عثمان الميلود، الشعرية التوليدية، مداخل نظرية، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، سنة1421هـ/2000م، ص18.

(27)- الرحلة، ص:359، وأولاد أبي الليل عرب يقيمون فيما بين توزر، نفطة، تبسة، ولهم رئاسة في ذلك الوقت.

(28)- نفسه، ص:360. (29)- نفسه، ص:326.

(30)- نفسه، ص:317. (31)- نفسه، ص:483.

(32)- نفسه، ص:441-442، ابن مزن: من عائلة عربية عريقة تولت مقاطعة الزاب عهودا طويلة.

(33)- ج. ب. بروان، ج. يول، تحليل الخطاب، تر د. محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك السعود، الرياض، سنة 1718هـ/1997م، ص:169.

(34)- نفسه، ص:458. (35)- نفسه، ص:472.

(36)- نفسه، ص:505.

(37)- يمنى العيد، تـقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار القارئ، بيروت، ط2، سنة1999م، ص:73.

(38)- الرحلة، ص: 412-413. (39)- نفسه، ص:155-156.

(40)، (41)- نفسه، ص:250. (42)- نفسه، ص:251.

(43)- نفسه، ص:460، أولاد عساكر عرب هلاليون تولوا رئاسة نقاوس من زمن الموحدين إلى زمن الرحلة.

(44)- نفسه، ص:255-256. (45)- نفسه، ص:283.

(46)- نفسه، ص:299. (47)- نفسه، ص:264.

(48)- حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1، سنة1991، ص:75-76

(49)- الرحلة، ص:17-181، 211-213. (50)- نفسه، ص:209-210.

(51)- نفسه، ص:437. (52)- نفسه، ص:339.

(53)- جيرار جنيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة الهيئة العامة للمطابع الأميرية، ط2، سنة 1997م، ص:109-110.

(54)- الرحلة، ص:329. (55)- نفسه، ص:380.

(56)- جيرار جنيت، المرجع السابق، ص:117. (57)- الرحلة، ص:484.

(58)- نفسه، ص:412-414. (59)، (60)- نفسه، ص:416.

(61)- نفسه، ص:416-425. (62)، (63)- نفسه، ص:417.

(64)- نفسه، ص:119. (65)- نفسه، ص:420.

(66)- نفسه، ص:464. (67)- نفسه، ص:438.

(68)- نفسه، ص:439-440. (69)- نفسه، ص:445.

(70)، (71)- نفسه، ص:421. (72)- نفسه، ص:477.

(73)- نفسه، ص:425.